

## البعد الديني واثره على الفكر الجمالي

### في الحضارة الإسلامية

ابو حيان التوحيدي نموذجاً .

الأستاذ: بلعز نور الدين .

جامعة تلمسان

### تمهيد :

إن المتتبع للفلسفة في القرن الرابع هجري وبالتحديد العصر العباسي الثاني يجد نفسه أمام عالم من العلماء الأجلاء وهو أبو حيان التوحيدي خاصة في كونه قدم رسائل مهمة في القضايا الأساسية التي أسست نظرية الجمال ولعله يعد من الأوائل والسباقين في إعطاء رؤية للجمال والفن ومشكلة الإبداع والتذوق في ثوب عقائدي ( سوف تأتي على ذكر الخيوط المتينة والتقاطعات التي تعبر عن التقارب بين الفكر الديني والفكر الجمالي عند هذا العالم ).

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي الملقب بابي حيان التوحيدي فيلسوف ومتصوف وأديب من مواليد بغداد سنة 922م / 310 هـ ، ينفرد عن غيره من علماء عصره بدقة أسلوبه وتنوع اطلاعه ، تتلمذ في الأدب على يد أبي سعيد السيرافي واخذ الفلسفة عن أبي زكرياء يحيى بن عدي المنطقي ، واللغة وعلم الكلام على علي بن عيسى الرماني ، ولقد ساهم هذا التكوين في إثراء رصيده من المصنفات وهي : الامتناع والمؤانسة وهو من الكتب الجامعة التي يغلب عليها الطابع الأدبي ، البصائر والذخائر عبارة عن موسوعة تقع في عشرة أجزاء من روائع ما سمع وقرا وحفظ .

الصدقاة و الصديق : رسالة أدبية تشتمل على العديد من أخبار الأدب المتعلقة بمواضيع مثل الصداقة ، أخلاق الوزيرين أو مثالب الوزيرين وهو كتاب يصف فيه ما شهده وسمعه عن أخلاق لوزيرين ابن العميد ، والصاحب ابن العباد.

المقابسات .

الهوامل والشوامل : الهوامل هي مجمل الأسئلة التي بعثها إلى ابن مسكويه ، اما الشوامل فهي أجوبة ابن مسكويه.

الإشارات الإلهية وهي عبارة عن خواطر ومناجيات صوفية بعيدة في أسلوبها عن أساليب المتصوفة.

ورغم هذا التعداد من المصنفات ، فإن التوحيدي قام بإحراق كتبه لأنه رأى بأنها لم تلق المأما و قدرا من طرف الملوك فجمعها واحرقها فلم يسلم منها غير ما نقل .

توفي التوحيدي سنة 1023م / 414 هـ.

ينطلق هاجس البحث في دراسة البعد الديني وأثره على الفكر الجمالي عند التوحيدي من ضرورة الإجابة عن التساؤلات الآتية : إذا كان التوحيدي أسس لنظرية في الجمال فما طبيعتها والمعايير التي تتحكم فيها ؟ وما هي تجليات البعد الديني في الفكر الجمالي عنده؟

يقرب التوحيدي في نظريته الجمالية من المنهج الذاتي الذي قوامه الذوق الذي يمتاز بالنسبية من جهة ، ومن جهة أخرى يطبع عليه الجانب الحسي وخلص إلى موازنة بين الاتجاهين من خلال محاولته تحديد معيار الجميل وعلاقته بالجوانب الاجتماعية ، حيث ركز في جل أبحاثه على نسبية الجمال والقبح فتحدث عن تذوق الجمال ورأى انه نسبي ومتغير ، فلكل إنسان ذوقه الفني والجمالي كما انطلق من الأسس التي يقوم عليها الحكم الجمالي حيث يقول : فإما الحسن والقبح فلا بد له من البحث اللطيف عنهما : حتى لا يجوز فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا فيأتي القبيح على انه حسن ويرفض الحسن على انه قبيح ، ومعايير الحسن والقبح كثيرة منها طبيعي ، ومنها بالعادة والشرع والعقل والشهوة (1).

يرى التوحيدي ان هناك خمسة عناصر موضوعية وذاتية تشترك في تكوين الجميل وتساهم في عملية التقدير الجمالي وهي :

● العنصر الطبيعي وهو أن الجميل يكون جميلا بحكم تكوينه الطبيعي لان الطبيعة في نظره هي مصدر الإلهام

والإبداع لجمع الفنون حيث يقول : "الطبيعة ينبوع الصناعات والفكر "

● العنصر الاجتماعي : يحدد الاجتماع البشري طبيعة الجميل بحسب العادة والعرف والوصف .

● العنصر الديني : كل جميل يجب أن يوافق الدين وما يدعو إليه .

● العنصر العقلي : يدرك الجميل وفق البصيرة أو العقل لأنها منفذ للمعرفة الجمالية .

● العنصر الشهواني : وقد يدرك الجميل عندما يسد الرغبة الشهوانية في الإنسان .

ومن خلال هذه العناصر تبرز إلى حد ما نظرة التوحيدي إلى الجميل كما أن جذور ومعالم هذه النظرية تتضح

بصورة أوسع عندما كتب التوحيدي إلى زميله ابن مسكويه في رسالة الهوامل والشوامل محاولاً تفسير ماهية الجمال ويتساءل : ما سبب ميلنا للأشياء الجميلة أو الصورة الحسنة وما هذا الولع الظاهر والنظر والعشق الواقع في القلب والفكر الطارد للنوم والخيال المائل للإنسان ؟ أهذه كلها من آثار الطبيعة أم هي عوارض النفس أم دواعي العقل ، وبناءً على ذلك تبدو نظرية التوحيدي في الجميل أنها نسبية ومتغيرة وتتحكم فيها عوامل متخلفة هي التي تتدخل في عملية التقدير الجمالي للأشياء.

### 1-الجمال الشكلي للإنسان و قيمة الفنون التشكيلية البصرية عنده:

يؤكد التوحيدي في جمال الإنسان انه يحصل عند اعتدال صورته و أفعاله حيث يقول:"كمال صورة الإنسان الظاهرة في تناسب أعضائها و اعتدال مزاجها و رقة بشرتها و غير ذلك من الاعتدال و النسبية في الجمال المادي الحسي، أما الجمال المثالي المعقول هو الله الجميل المطلق الواهب للجمال، و هو مصدر الموجودات الجميلة ومنه تستمد النفس البشرية جمالها و هو جمال ثابت، و لذلك يقول التوحيدي بالجمال الشكلي او الحسي :كمال في الأعضاء و تناسب في الأجزاء مقبول عند النفس و الواضح هنا اشتراط البعد الذاتي النفسي في تذوق الجمال الشكلي.

و خلال تطرقه لعلاقة الجمال بالخير و المنفعة الوظيفية يرى أن هناك تناسق بين المنفعة و الحسن وبين العقل و العاطفة او بين الوظيفة و الشكل و يقوم التوحيدي بعملية إسقاط هذا التناسق في الجمال على الفن حيث يجد ان الفن مؤلف من شكل و مضمون من فكر هو الحكمة و إبداع هو البلاغة وهي نقطة التقاطع و التلاقي بين ماهو ديني و ماهو جمالي، و يعد التوحيدي اول من تحدث عن جمالية الخط العربي في رسالة تحت عنوان " علم الكتابة " و كان قد وضع فيها شروطاً للخط الجميل و لأنواع الكتابة.

لقد اشتهر التوحيدي بإتقان الخط و تحميلة و ذلك لان فن الخط العربي هو أول فن تشكيلي بصري أبدع فيه العرب وهو من الفنون البصرية الإسلامية لأنه يعد المدرسة الفنية الأولى في الرسم عند العرب خصوصا انه القلب الذي احتوى مضمون كتاب الله ليزيده فوق جماله البياني و الفكري و العقائدي جمالا شكليا فقد أصبح الخط العربي وسيلة العلم و الأدب و الكتابة حيث جملة الفنان العربي بما يليق بمكانة اللغة العربية في وجدانه ، ثم تطور فأصبح فنا جميلا يحقق متعة جمالية إلى جانب المنفعة

يرفض التوحيدي التيارات الجمالية المعاصرة التي تنادي بالفن للفن أي الفن من اجل اللهو و الهزل، فهو يعتقد أن العمل الفني هو فوق العلم لان العلم بحاجة إلى الفن و في ذلك يقول: "و أما قولك إحدى الصناعتين هزل و الأخرى جد، فبئسما سولت لك نفسك عن البلاغة هي الجد و هي الجامعة لثمرات العقل لأنها تحق الحق و تبطل الباطل على ما يجب أن يكون الأمر عليه" (2)

## 2\_مكامن الاتفاق بين الكمال و الجمال في تصور الفكر الجمالي عند التوحيدي:

لقد ساهم الفكر الجمالي في القرن الرابع هجري في ابتداء المنزع العقلي الذي ساعد على إعادة تشكيل المدركات بما يدفع الحدس التصوري إلى استبطان و اكتناه عوالم الذات وفق بعدها الاستشراقي و في علاقتها الجدلية بين الشكل و المضمون بين فكر هو الحكمة و إبداع هو البلاغة، و حسب الدراسة التي قام بها المفكر و الناقد الفني التونسي طه الليل في كتابه مقومات الكمال و دلالات الجمال في الفكر العربي الإسلامي نجد حضورا لهذه العلاقة عند ابي حيان التوحيدي.

يقتزن المضمون الجمالي عند التوحيدي بصفة الكمال و هو ما يشرع فعلا الموقف الجمالي لصفة الشيء في عالمه الدنيوي و الحسي و ارتباطه جدليا بماهية الوجود، ففي تحديدنا لمفهوم الكمال لغة هو حسب ابن منظور في لسان العرب هو التمام و قيل التمام الذي لا يتجزأ و يقال كمل الشيء يكمل ، و كمل و كمل كمالا و كمولا.وشيء كميل كامل جاؤوا به على كمل .اما الكمال اصطلاحا هو الملائم النابع من تمام الصفات و التناسب و التناسق في أجزاء الشيء و عناصره و خصائصه و وظيفته التي يجب أن تتسم بعدم النقص.

إن ارتباط الكمال بالوجود و علاقته بالعالم الحسي يمكن قراءتها في ثلاثة أبعاد أساسية وهي:

البعد الوجودي: يقترن الكمال بصفته مكونا رئيسيا لماهية الكائن و الإنسان.

البعد المعرفي: القيم الإنسانية و المعنوية و المادية هي المحددة للمستوى المعرفي لهذا الكمال.

البعد الجمالي: تشكل عملية اقتران الجلال بالجمال الجوهر الأصلي لماهية الكمال (3).

و من ذلك يتصور التوحيدي رؤيته للعالم من خلال نظرية الأنساق الكلية التي تنطلق من مبدأ الذاتية التي تتعامل مع الوجود ضمن سعي الإنسان إلى معرفة الله و الفناء فيه، أما عكس ذلك فان الخضوع للحواس و الطبيعة يمثل مركزا للانقياد و السقوط في المشاعر و تمثل حركة الإنسان في السعي إلى التماهي مع الله عملية من عمليات

التدرج و التقلب من حال إلى حال من هيئة إلى أخرى للتجرد من أدران المادة للتمتع في صفات العالم الأكبر، ليتم في نهاية هذا التدرج إدراك صفتي الكمال و الجمال مقترنين و الذي يستدل بهما عن وجود الله من خلال عملية الفيض الإلهي. ومن خلال هذا التحليل يرتبط مفهوم الكمال ارتباطا كليا بالمعيار الخلقى الذي يتمثل في معرفة الله، فمعرفة الكمال تنطلق من جوهر وجود الإنسان و من سعيه الدؤوب إلى معرفة أبعاد النفس و تجلياتها من خلال النظرة العقلية التي تعيده إلى مبدأه الأول المقترن بالمواصفات الإلهية، فالكمال في قيمته الجمالية لا يمكن له أن يتحقق في العالم الحسي إلا من خلال فعل التغيير بمعنى الحركة التصاعدية التي تمكن الإنسان من التمتع في الجمال من خلال التبدل بمقومات الحسن و الجمال من حالة حسنة إلى حالة أحسن منها و هذا ما يؤكد في المقابسات: "و إذا كان العالم يصير في كل ساعة و لحظة إلى هيئة لم يكن عليها من قبل فهل ذلك إلا لان العالم متوجه إلى كمال و جمال ينالها حالا فحالا، ثم يكون له بوجود الحق الأول مبدأ يتحدد فيه تشوقه" (4).

يستعين التوحيدي بالآية العاشرة من سورة يس في قوله تعالى: "من اتبع الذكر و خشى الرحمن بالغيب." ليؤكد أن الذكر بماهو تمعن في خلق الله و أعمال العقل و ليس كممارسة روحانية وجدانية و إنما هو ارتفاع و سمو بالعقل من العالم المقيد المحدود في حقائقه و صفاته و صورته إلى معرفة باطن و جوهر الحق و الاندماج فيه و السفر إليه و من ثم الفناء في وحدانيته. إن هذه المعرفة لا تتحقق إلا بالمعرفة العرفانية اليقينية التي جوهرها النفس و التي هي قوة إلهية من بين الجواهر و العقول، و من خلال النفس يمكن معرفة العالم العلوي و عبر تمعننا في صفات الجمال النابعة من الطبيعة و من ذلك ينفي

التوحيدى إن الطبيعة هي المانحة للجمال و الفن و إنما جماها من جمال العالم العلوى القائم على التناسب فى القيمة و الشكل و الهيئة و المادة حيث يقول: "لقد كانت النفس فوق الطبيعة و كانت أفعالها فوق الحركة فإذن ملاحظتها الأمور ليست لسبب الماضى و الحاضر و المستقبل بل الأمر عندها السواء فمتى لم تعقها عوائق الهىولات (المادة) و حجب الحس و المحسوسات أدركت الأمور و تجلت بالأزمان."

تحدد إذن العلاقة بين الجمال و الكمال و الطبيعة عند التوحيدى من خلال اثر النفس فيها حيث يقول: "فقد كفت الطبيعة فى مواضعها التى لها الولاية عليها من قبل النفس كما كفت النفس فى الأشياء التى لها عليها الولاية من قبل العقل، كما كفى العقل فى الأمور التى له الولاية عليها من قبل الإله و إذا كان المجموع هذا راجعا إلى الإله فانه فى التفصيل محفوظ الحدود على أربابها." وينبثق عن هذه العلاقة مفهوم الجلال، إذ يصنف التوحيدى الجمال فى ثلاثة مستويات و هي: الحسن، الجمال، البهاء فكل هذه المفاهيم تدعم رؤية التوحيدى القائلة بنظرية الفيض المتمثلة فى كون الجمال نابع من مصدر واحد هو الله لأنه مصدر كل جميل و منبع الجمال الكلى الذى تنعكس منه الجمالات الأخرى حيث يقول فى ذلك: "والعالم السفلى مع تبدله فى كل حال و استحالاته فى كل طرف و ملح مستقبل للعالم العلوى شوقا إلى كماله و عشقا إلى جماله و طلبا للتشبه به و تحققا بكل ما أمكن من شكله" (5).

أما فى عملية التذوق الفنى فقد وضح التوحيدى ان النفس تنجذب نحو الموضوع الجمالى فتتفاعل معه حسيا من خلال ارتياحها الحسى و النفسى للجميل، كما تفعل بإدراكات العقل من خلال البراهين و المعقولات، فهو يميز بين الجمال المثالى الذى يدرك بالبصيرة وهو مطلق، وأما الجمال المادى فهو يدرك بالحس و هو نسبي و تتحكم فيه معايير ذكرناها سابقا.

إن سعى النفس إلى إدراك الجمال المجرى يتجلى من خلال الانجذاب و الاتحاد حيث يقول التوحيدى: "إن التذوق الجمالى هو نوع من أنواع الانجذاب و الاتحاد بين المتذوق و بين المؤثر الفنى، ذلك أن النفس تنزع عن الصور الطبيعية مادتها فتستخلص جماليتها مجردة، وتتحد بها فتصير إياها مثلما تفعل فى المعقولات، فالذوق و إن كان طبيعيا فانه مخدوم الفكر و الفكر مفتاح الصنائع البشرية، كما أن الإلهام مستخدم الفكر و مفتاح الأمور الإلهية." وبناء على ما سبق ذكره فان نشأة العلاقة بين الشكل و المضمون فى الموضوع الجمالى متأنية من النفس من خلال عملية الانجذاب الحسى و الاتحاد العقلى

لتصبح الصورة الفنية مجردة من مادتها ، فتمر الطبيعة إلى العقل الذي يقوم بتحليلها فتتحول من الجمال الذي أوكله الله لها إلى جمال من منظور إنساني متراوح بين المادي و الذهني، فتأثر الصورة بالنفس إلى درجة التوحد و التماهي بين الموضوع الجمالي والمتذوق له، و يتأكد ذلك في قول ابن مسكويه إجابة عن أسئلة التوحيدي المتعلقة بجمال الصورة الفنية: "تأثر النفس بالصورة الحسنة إلى درجة الاندماج و التوحد بين المتذوق و العمل الفني" (6) .

يستخلص إذن البعد الديني في علاقته بالبعد الجمالي في تصور الجمال عند التوحيدي من خلال الكمال و الجمال وكذلك في إدراك الفنون التشكيلية حيث يقول التوحيدي : " تشترك العبارة والإشارة في تقريب الحقيقة الإلهية إلى الناس إذ أن الإشارة التي هي إليك ومنك ..... ولم تختلف هذه إلا لحاجة الخلق إليها فلا جرم ولا إشارة ولا عبارة إلا إلى وجه الاستعارة والإعارة " ، ولئن كان النهج الصوفي يتطلب مشاركة الذات في بناء تعبيرها فهي تعتمد على بنى لغوية قائمة على تجربة وجدانية حدسية حيث ينتقل الصوفي إلى باطن الشيء أو الموضوع الجمالي مثل الزخرفة ليحدث بذلك في رحلته وحركته ذلك التماهي والاتحاد بالذات الإلهية ، فالزخرفة الإسلامية عموما متراوحة بين الغموض والتجلي وإذا ما حاولنا فك رموزها ومفرداتها التعبيرية والتشكيلية فان ذلك يستدعي قراءة في متن البنية وخصائصها الباطنية على أساس ما يسمى بالتأويل الباطني مثله مثل المنهج الصوفي .

<sup>1</sup>.سعد الدين كليب ، مفهوم الكمال في الفكر العربي الاسلامي ، مجلة المعرفة ، سوريا ، عدد 1994،ص 371

<sup>2</sup>ابو حيان التوحيدي ، المقابسات ، ترجمة وتحقيق محمد توفيق حسين ، دار الاداب بيروت 1989، ص 58- 263

<sup>3</sup>ابو حيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ترجمة وتحقيق احمد امين واحمد الزين ، دار مكتبة الحياة بيروت 1986، ص 134-135 .

<sup>4</sup> ابو حيان التوحيدي ، الهوامل والشوامل ، ترجمة وتحقيق احمد امين وسيد احمد صقر ، مكتبة الاسرة ، القاهرة 2009 ، ص 25-93-140-137 .

<sup>5</sup>ابو حيان التوحيدي ، الإشارات الإلهية ، دار الثقافة ، بيروت ، 1973، ص 203.

<sup>6</sup>سعد الدين كليب ، مفهوم الكمال في الفكر العربي الاسلامي ، مجلة المعرفة ، سوريا ، عدد 1994،ص 372